التنصير ومشروع صناعة الأقليات في الجزائر

أ/ زبيدة الطيب

جامعة الأمير عبد القادر العلوم الإسلامية قسنطينة

مقدمة

تعرضت الجزائر عبر تاريخها الطويل إلى الكثير من الحملات الإستعمارية التي استهدفت وجوده وحضارته وخيراته، غير أن أشرسها كان الاستعمار الفرنسي الذي سخر كل وسائل الحرب من أجل سلب الجزائر إنتماءها وشخصيتها. ويعتبر التنصير أحد أبرز وأهم الوسائل التي إعتمدت عليها إدارة الاستعمار لتحقيق ذلك الهدف.

وقد أبدى معظم الجزائريين شجاعة كبيرة في الدفاع على هويتهم التي يشكل الدين أهم عناصرها منذ أن وطئت أرجل الاستعمار وأذرعه التنصيرية هذه الأرض الطيبة وهي الجهود التي مكنت الجزائريين من طرده.

وقد بدا اليوم التحالف بيّنا بين الاستعمار ممثلا في القوى الكبرى والتنصير ممثلا في الكنائس العالمية الكاثوليكية والبروستانتينية من خلال محاولات تلك القوى توظيف المنصرين من أجل خلق أقليات مسيحية في البلاد العربية ومنها الجزائر تكون ظهيرا قويا للإستعمار.

المبحث الأول: وسائل مقاومة الشعب الجزائري للتنصير إبان الإحتلال:

لقد كان التنصير مشروعا إستيطانيا عمل من خلاله الاستعمار الفرنسي على توطين الديانة المسيحية والثقافة الفرنسية والإنسان الأوروبي في الجزائر تحقيقا لمقولة أن الجزائر قطعة من فرنسا. وقد أدرك أغلبية الجزائريين ذلك البعد الإستيطاني لعملية التنصير فقاوموه بكل قوة. ولذلك تعددت وسائل مقاومة الشعب الجزائري للتنصير وتنوعت فكان منها:

1 /إنشاء الجمعيات الدينية:

وقد كان على رأسها الجمعية التي أنشأها الإمام عبد الحميد بن باديس وثلة من علماء الجزائر، والتي أطلق عليها إسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان ذلك في العام 1930 أي بعد مرور قرن كامل من إحتلال الجزائر الذي كان في العام 1830. وبحسب العديد من المؤرخين والباحثين فإن توقيت إعلان ميلاد جمعية تهتم بشؤون الجزائريين الروحية والحضارية والإجتماعية كان مقصودا بعد أن فرح الاستعمار الفرنسي واحتفل بالقضاء على مقومات الجزائر وضمها إليه إلى الأبد. ولذلك آلت الجمعية على نفسها بعث الأمة الجزائرية وكان شعارها الذي أعلنته منذ البداية هو أن: " القرآن إمامنا والسنة سبيلنا والسلف الصالح قدوتنا وخدمة الإسلام والمسلمين وإيصال الخير لجميع سكان الجزائر غايتنا."[1]

وقد أدركت الجمعية الخطر الذي يتهدد الأمة في وجودها ألا وهو تلك المحاولات التي كانت تقوم بها الجهات الدينية المسيحية مدعومة بالمؤسسة الإستعمارية

---

1 سعيدوني ناصر الدين، الجزائر منطلقات وآفاق، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص 223.

لتحويل الجزائريين عن دينهم وصدهم عن عقيدتهم. ومن جهة ثانية أدركت الجمعية دور التوعية الدينية والفكرية في الدفاع عن وجود الأمة والحفاظ على هويتها الوطنية ضد المشروع التنصيري الخبيث. ولذلك سعت إلى التنبيه إلى ذلك المشروع الخطير عن طريق المحاضرات والدروس والمقالات الصحفية وغيرها من الوسائل. فكان أن نبهت في سجلها إلى أن التنصير "... نتيجة من نتائج التعصب المسيحي المسلح ومولود من مواليد القوة الطاغية التي تسمي كل ما ترضى عنه من الأعمال المنكرة حرية دين أو حرية فكر.. ."[1]" وقد كان لتلك الحركة التربوية والتثقيفية التي تولتها جمعية العلماء المسلمين الجزائرين دورا في تمسك الشعب الجزائري بدينه وعقيدته ومحاربة التنصير والمنصرين.

2/ الإستعانة بالفكر الإسلامي المشرقي:

وقد استعان الجزائريون بالفكر الإسلامي المشرقي، وفي هذا الإطار جاءت زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر وقد كان تأثر الجزائريين بحركة محمد عبده الإصلاحية ورموزها وجرائدها ومجلاتها كبيرا. يقول محمد علي دبوز: "... إن نهضة مصر وصدى زعمائها مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وتلامذتهم ومصطفى كامل ومحمد فريد [.. .] كل هؤلاء كان لهم أبلغ الأثر في نفوس الجزائريين وأهل المغرب عموما؛ إذ اعتبر هؤلاء نهضة مصر نهضة الإسلام كله وجهادا للعدو المشترك.. ."[2] وبخصوص المجلات والصحف والجرائد والكتب قال أن الجزائريين كانوا "...

1 سجل جمعية المسليمن الجزائرين، ص 72.

2 دبوز محمد علي، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، الجزائر، المطبعة العربية، 1971، ج2، ص27-28.

يجدون فيها تعبيرا عن رغباتهم وإحساساتهم وتنفيسا عن صدورهم التي يأبى عليها الاستعمار أن تنفس بالكلام. لقد وجدوا في مقالات مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وغيرهم في جريدة اللواء وجرائد أخرى ما يعبر عن آلامهم وآمالهم. وكانت الجزائر في أوائل القرن العشرين تترقب بريد الشرق في شوق عظيم، فإذا وصل سارع الناس إلى قراءته "[1]. ولا جرم أن يكون الأستاذ مالك بن نبي، وهو أحد عمالقة الفكر الإسلامي ليس في الجزائر فحسب بل في العالم الإسلامي برمته، أحد المتأثرين بنهضة الشرق وكتابات علماء مصر ومشايخها؛ حيث يذكر في مذكرات شاهد القرن تأثره الشديد بكتابين عثر عليهما في مكتبة النجاح وهما كتاب "التوحيد " للشيخ محمد عبده وكتاب " الإفلاس الفكري للسياسة الغربية في الشرق" لصاحبه أحمد رضا فيقول:... هذان الكتابان أثرا على ما أعتقد في أبناء جيلي من المدرسين وأنا مدين لهما على كل حال بذلك التحول في فكري منذ تلك الفترة [...] هذه القراءات شكلت بالنسبة لي قوة أخرى من التنبيه في المجال الفكري؛ إذ حالت دون انحرافي إلى الرومانطقية التي كانت شائعة في ذلك الجيل من المثقفين الجزائريين... "[2] وهذا يعني أن نهضة الشرق كان لها دور بارز في تمسك الجزائريين بعقيدتهم ومن ثمة تصديهم لحملات التنصير الإستعمارية.

3 / الحفاظ على تعليم الدين واللغة العربية

وقد اضطلعت الزوايا والحركة الإصلاحية ممثلة في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمهمة المحافظة على اللغة العربية والتعليم الديني في الجزائر. والحقيقة أن العلم

---

1 المصدر نفسه، ص 28

2 بن نبي مالك، شاهد القرن الطفل – الطالب، ط2، دمشق، دار الفكر، 1984، ص66

الديني يذكر له أنه ولّد في الجزائريين حسا وطنيا ودينيا أحال أغلب سياسات التنصير إلى فشل طيلة الفترة الإستعمارية الممتدة من 1830إلى 1962 وما بعدها. ومن نافلة القول أن تعليم اللغة العربية والعلوم الإسلامية كان من أولويات برنامج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ تلك اللغة والعلوم التي تنكر لها الاستعمار واعتبرها لغة أجنبية وهو ما جاء في التقرير الذي رفعته الجمعية إلى الحكومة الفرنسية وقال فيه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: " إن أشد ما في تلك القرارات إيلاما وجرحا لعواطف المسلمين عامة والعرب خاصة ما جاء في بعض بنود القرارمن اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في بلاد عربية هي الجزائر."[1]

ولذلك لا نستغرب تلك الحملات التي قامت بها الإدارة الإستعمارية في محاربة الحركة الإصلاحية والزوايا ورجالها والتنكيل بالشيوخ والمعلمين وإحلال الكنائس ومراكز التنصير محلها خاصة في المناطق التي راهنت على تنوعها اللغوي لتجعل منه تمايزا واختلافا تخلق به بؤرا لتمزيق الوحدة الوطنية، والمقصود بالذات مناطق القبائل والأوراس؛ حيث أعلنت الحرب على شيوخ الزوايا فيها إعتقالا وسجنا وتنكيلا ونفيا فقد "... أبعد عن الأوراس الشيخ الصادق بلحاج هو وأولاده وتعرضوا للنفي، ونفي الشيخ الهاشمي دردور إلى جزيرة كورسيكا، وأرسل الشيخ محمد أومزيان إلى كاليدونيا... "[2]

---

1 التقرير موجود ضمن نصوص ووثائق مديرية الوثائق لولاية قسنطينة، رقم7-8-9، 1982 ،ص11

2 سعيدوني ناصر الدين، المصدر السابق، ص83

وقد تعددت صور المقاومة فاتخذت الطابع الفردي أحيانا والجماعي والمؤسسي في أغلب الأحيان فكان منها الكشافة الإسلامية والتظاهر في الأسواق والهجرة وغيرها.

المبحث الثاني: التنصير والأقليات

تبدو العلاقة بين عملية التنصير والأقليات وثيقة حيث تبين الوثائق والحقائق أن التنصير يبعد أن يكون دعوة دينية بقدر ما هو عمليات تستهدف البلاد الإسلامية في أمنها وثقافتها وعقيدتها وتاريخها ومنظومتها الوجودية كاملة وهو ما حدا بي إلى الربط بين هذين اللفظين أو الإصطلاحين من خلال ثلاث نقاط:

1 / مفهوم الأقليات:

لم يعثر الباحثون على مصطلح الأقليات في التداول الثقافي الإسلامي سواء ما تعلق منه بالفقه أو السياسة الشرعية؛ ما يعني أنه مصطلح حديث أفرزته الثقافة الغربية ومعطياتها في الفكر السياسي والعلاقات الدولية. ولذلك نذهب إلى محاولة البحث عن مفهوم الأقليات كما هو في القانون الدولي؛ وفيه نلحظ إتجاهين في التعريف:

الإتجاه الأول: وهو الإتجاه الذي اعتمد معيار العدد، وهو التعريف الأقرب إلى مفهوم القلة في اللغة العربية والذي يشير إلى مقابل الكثرة. وقد جاء فيه: " الأقلية هي جماعة أقل عددا من بقية سكان الدولة التي ينتمون إليها ولديهم خصائص ثقافية أو تاريخية أو طبيعية أو لديهم دين أو لغة تختلف عن خصائص أو دين أو لغة بقية السكان."[1].

1- francesco copotorti ،etude des droits des 1personnes appartenant aux minorites ethnique religieuses et linguistiques ،deuxieme conference mondiale de la lutte contre le racisme et la dicrimination raciale ، departement de l,information de l,organisation des nations unies ,documents de base ،n06 ،p02.

الاتجاه الثاني: وهو الإتجاه الذي اعتمد معيار الأهمية، والمقصود هو الجماعة البشرية المستضعفة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، بغض النظر عن العدد[1] والملاحظ في التعريفين أنه، ربما، كان الأول أكثر قربا وملامسة لوصف المجموعات البشرية التي يصدق عليها توصيف الأقلية. في حين لا يعبر التعريف الثاني عن مضمون الأقلية لأنه إذا أخذنا بمعيار الأهمية وحاولنا تطبيقه على البلاد العربية فإننا سنجد شعوب المنطقة العربية مثلا كلها أقليات بالنظر إلى التهميش السياسي والعسف الإجتماعي الحاصل في المنطقة والذي تعيشه هذه الشعوب.

ومع ذلك فقد اجتهد بعض المهتمين في ضبط تعريف جمعوا فيه العناصر التي يمكن أن تكوّن جسم الأقلية وأبرزها:

- أن يكون أفرادها مواطنون يدينون بالولاء للوطن.
- أن يكون عددها أقل مقارنة بباقي السكان.
- أن يتميزوا في العرق والثقافة واللغة والدين.
- أن يكونوا بعيدين عن مراكز النفوذ والقرار.
- أن يتميزوا بنوع من التضامن بين الأفراد والعمل على تنشئة أبنائهم على إحياء ثقافتهم وتقاليدهم الخاصة. وعليه جاء التعريف التالي: " الأقلية هي مجموعة من المواطنين تقل عدديا عن بقية سكان الدولة التي ينتمون إليها ويكون لهؤلاء الأفراد من الخصائص العرقية والدينية أو اللغوية ما يميز بينهم وبين سكان الدولة مع ضرورة إتحادهم في الشعور والتضامن والترابط من أجل الحفاظ على هذه الخصائص

---

1 انظر: أحمد وهبان، الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر ط2، الإسكندرية، دار الجامعة، 1999، ص80-81

وتنميتها. "[1] والأقليات أنواع هي: الأقليات الدينية واللغوية والعرقية والقومية؛ فالأقلية الدينية هي ما كان الدين هو عنصر تميزها واللغوية ما كانت اللغة هي محل التميز والأمر نفسه ينسحب على العرقية والقومية.

ولأن الجزائر تتميز بشبه إنسجام بين أهلها من حيث الدين مع بعض التنوع في العرق واللغة عرفت به بعض المناطق الجزائرية فقد سعى الاستعمار لإيجاد أقلية وتحويل التنوع إلى اختلاف معتمدا في ذلك على بعض الأسس نشير إليها في النقطة التالية.

2 / أسس مشروع صناعة الأقليات في الجزائر:

اعتمدت القوى الإستعمارية على مقولة " فرق تسد " التي تعني ضرورة البحث في مواضع الخلاف العرقية والطائفية والمذهبية في الأمة الواحدة أو الشعب الواحد بهدف استغلالها في بث الفرقة بينهم ومن ثمة التمكين لنفسها بعد أن يستفحل الخلاف الوهمي بين أبناء الأمة الواحدة.

ويعتبر الاستعمار الفرنسي من أشد من عمل على وتر التنوع العرقي واللغوي في الجزائر بخلق ما يسمى بمقولة البربر والعرب، وهي المقولة التي أوصلت إلى تقسيم الجزائريين إلى سكان أصليين وهم البربر أصحاب الأرض وآخرين دخلاء ومحتلين وهم العرب ومن بعدهم الأتراك العثمانيون. وهي النتيجة التي عدّت ورقة رابحة في أيدي المنصرين الذين سرعان ما تلقفوها لتكون إحدى وسائل تنصير المسلمين في الجزائر.

وفي سبيل التمكين لتلك المقولة في أرض الواقع، جندت المؤسسة الإستعمارية والتنصيرية مجموعة ممن تسميهم أكاديميين وعلماء عملوا على البحث والحفر في

---

1 حسام هنداوي، القانون الدولي العام وحماية حقوق الأقليات، القاهرة، دار النهضة العربية، 1997، ص79.

مناطق التنوع الجزائرية، بهدف إثبات مسيحية تلك المنطقة وعلاقتها بالحضارة الرومانية وقطع صلتها بالعالم العربي أو امتدادها الشرقي الإسلامي، وقد خلصت إلى بحوث ودراسات تضمنت الكثير من المغالطات التاريخية، وقامت تلك الدراسات بالبحث في تاريخ الشمال الإفريقي وهي الدراسات التي وصلت إلى أن الجزائر هي أقرب إلى أوروبا المسيحية منه إلى الشرق الإسلامي وأن الفتوحات الإسلامية هي احتلال فرض على البربر الإسلام بقوة السيف وإرهاب الكلمة وأن البربر قبلوه تحت الضغط والإكراه. وكان من أولئك الباحثين ضباطا وسياسيين ورحالة ورجال دين ركزوا على البحث في عادات الناس وتقاليدهم في منطقة القبائل ودراسة حاجياتهم وأنماط معيشتهم وسلوكاتهم الإجتماعية اليومية والحفر في الجذور التاريخية والدينية وغير ذلك. ويعد الضابط **كاريت** من أبرز من اهتم بمنطقة القبائل، وهو الذي رأى أن بلاد القبائل ظلت بعيدة عن الفرنسيين مدة طويلة وأنه آن الأوان لاستردادها لتكون المساعد الكبير في تنفيذ مشاريع فرنسا في الجزائر والشريك الوحيد في جميع أعمالها.[1] ومن المهتمين أيضا **البارون أوكابتن** صاحب المؤلفات الكثيرة عن بلاد القبائل والذي صرح في إحدى: " إن سكان القبائل الذين عرف إسلامهم بالفتور يميلون إلينا بعاداتهم وأخلاقهم. "[2]. وتتمثل تلك العادات والأخلاق في التسامح الديني والطموح وحب العمل والإنفتاح الفكري وغيرها من الصفات التي هي أقرب إلى صفة الأوروبي ذي الأصول الرومانية في مقابل صفات أخرى تميز العربي الغازي

---

1 خديجة بقطاش، مرجع سابق، ص 158، هامش رقم 3

2 أوكابتن، بلاد ومجتمع القبائل، باريس، 1857، ص80 نقلا عن خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830- 1871، مطبعة دحلب، الجزائر، (دط)، (دت).

والمحتل وهي التعصب الديني والتطرف المقيت والكسل والخمول واللامبالاة والإنغلاق الفكري والتشدد. ومنهم، أيضا، الجنرال **دوما**، أحد الأركان العسكريين والدينيين الذي قال في شأن القبائل: " كلما حفرنا هذا الجذع القديم وجدنا تحت القشرة الإسلامية الأصول المسيحية، وبهذا نصل إلى أن سكان القبائل جرمانيو الأصل عرفوا المسيحية قديما، وقد قبلوا القرآن ولكنهم لم يعملوا به. "[1]. وكان منهم رجال الدين الذين أجهدوا أنفسهم في محاولة إثبات مسيحية القبائل، ويظهر على رأس هؤلاء الأب **دوقا** الذي ذهب إلى أن الديانة المسيحية ستعمل على فرنسة القبائل وألحّ على ضرورة التكثيف من التعليم الديني[2]. وقد كان للسياسيين رأيا في الأصول التاريخية للقبائل؛ فقد صرح أحد المتحمسين منهم للإستعمار والداعين إليه الدكتور **واريني** بالقول: " ربما هم مسلمون [أي القبائل] ولكنهم يحملون وشاما على شكل صليب فوق الجبهة وعلى الوجنتين [...] وبربر جرجرة يبدون إستعدادا حسنا للرجوع إلى المسيحية."[3] ويبدو أن تلك الدراسات قد زودت المنصرين والقائمين عليه في الجزائر بقاعدة قد تكون صلبة للإنطلاق في عملية التنصير؛ فالتشابه، بل التطابق في العادات والصفات وطرق التفكير معناه، ببساطة، أن القوم لهم نفس الدين، وإنما الاحتلال والغزو العربي ومن بعده التركي هما العاملان اللذان حالا دون تمسك هؤلاء بدينهم الأصلي وهو المسيحية، وقد حان الوقت لفرنسا راعية الكاثوليكية في إفريقيا أن تعمل على إنصاف القبائل وذلك بردهم إلى دين آبائهم وأجدادهم ومن ثمة إيجاد

1 le gnerale daumas la grande kayilie etude historique paris 1843 p89

2 voir: le père duga: la kabylie et le peuple kabyle ,paris ,1877 ،p89

3 warnier: l,algerie devant ,l,empereur ,paris ,1865 p15

أقلية مسيحية تربط ترعى مصالح فرنسا. وقد عدّت تلك الدراسات وثائق أوهمت الاستعمار الفرنسي بإمكانية تمسيح المنطقة، ولاتزال بعض الشخصيات والنخب في الجزائر تصدقها وتراهن عليها من أجل إيجاد أقلية مسيحية في الجزائر. لكن ما الذي تراهن عليه فرنسا، ومعها القوى الكبرى في العالم، من خلال محاولاتها خلق أقليات مسيحية في الجزائر؟

3 / أهداف الأقليات في الجزائر:

بناءا على مفهوم الأقليات نجد أن حملات التنصير في الجزائر تستهدف بنيات سكانية تختزل التنوع العرقي واللغوي لتصنع أقلية تحوّل بها التنوع إلى اختلاف وصدام. وهي الأقلية التي تراهن عليها فرنسا الإستعمارية ومعها القوى الكبرى في العالم من أجل تحقيق أهدافها في المنطقة العربية وهي تحجيم الدور والقرار السياسي وتعزيز الهيمنة القافية والإبقاء على حالة الإنقسام والتوتر الإجتماعي وهي الأهداف التي تتغيأ هدفا إستراتيجيا واحدا ظلت تلك القوى تعمل عليه ألا وهو إحكام السيطرة والإبقاء على حالة الهيمنة التي باشرها الاستعمار منذ بداية القرن 18 والتي تعد استكمالا لمشروع الإنتقام الصليبي. ولذلك حصرت الأهداف في الأهداف السياسية والثقافية والإجتماعية.

الأهداف السياسية:

تتحدد سياسة البلدان بتحقيق عنصرين اثنين هما:

– الإستقلال التام: والمقصود به الإستقلال الترابي والجغرافي والمحافظة على الوحدة الترابية من التفكيك والتجزئة.

– السيادة الوطنية: والمقصود بها قدرة هذا البلد أو ذاك على ممارسة سيادته كاملة على أراضيه والتحكم في مقدراته الإقتصادية واستغلال خيراته الطبيعية وتحديد علاقاته الخارجية مع الدول والجيران واختيار المحاور والتحالفات وغيرها.

والسياسة، بهذا المعنى، تتناقض مع مصالح الدول الكبرى التي تقوم على مركزية وواحدية القرار بما يتلاءم ومصالحها على كل الأصعدة وفي كل الإتجاهات، وبالتالي تعمل تلك القوى بكل الطرق والوسائل على تحقيق هدف السيطرة والهيمنة الذي يضمن لها الحفاظ على المصلحة. وقد عملت الجهات التنصيرية في هذا الإتجاه بأن اجتهدت في تنصير بعض الجزائريين الذين يُهيأون ليكونوا مشروع أقليات مسيحية.

وتعتبر الأقليات بؤرا للفوضى واللاإستقرار في المجتمع لأنها تهيئ الأجواء للجهات الرسمية وغير الرسمية في الغرب للتدخل في الشأن الداخلي من خلال دعم تلك الأقليات ماديا ومعنويا وربطها بمجموعات المصالح والمال والإقتصاد والسلاح والقرار في الغرب وداخل البلد نفسه. وعمليات الدعم المادي لا تكون علنية في الغالب في الوقت الذي يكون فيه الدعم المعنوي علنيا عبر إحراج الدول المعنية في المحافل والهيئات العالمية والدولية والحقوقية بتصويرها أنظمية رجعية واستبدادية غير محترمة لحقوق الإنسان التي نصت عليها الشرائع السماوية والمواثيق الدولية ويتولى ذلك الدعم وسائط غير رسمية، في العادة، تسمى منظمات وهيئات ورموز حقوقية في العالم ما يعمل على عزل تلك الدول وتأليب تلك المجموعات المصطنعة عليها ويوفر بؤرة للتوتر الدائم والإضطراب المستمر ويخلق حالة من اللاإستقرار في ذلك البلد لتبقى تلك مشكلة تمثل شوكة في خاصرة الدولة وقابلة للإنفجار في أي لحظة وتمتلك القوى الكبرى فيها جهاز التحكم عن بعد تفجره في اللحظة المواتية.

وتتحقق الأهداف السياسية بأن تبقى تلك المجموعات ورقة مساومة تمارس بها الدول الكبرى الإبتزاز السياسي فتحدد لها علاقاتها وتحالفاتها وتحجم دورها إقليميا ودوليا؛ فتسحب منها القرار في القضايا والمسائل الوطنية والقومية وتمنعها من اتخاذ خطوات عملية باتجاه تلك القضايا كقضية التنصير أو القضية الفلسطينية مثلا.. .و في هذا الصدد تأتي تقارير الخارجية الأمريكية حول الحريات الدينية؛ حيث تقدم سنويا تقارير تحذر فيها الدول العربية والإسلامية من مغبة عدم احترام الحقوق الدينية للأقليات الموجودة على أراضيها. يقول الأستاذ محمد السروتي المتخصص في شؤون التنصير في حوار أجرته معه جريدة التجديد المغربية الصادرة بتاريخ 31/ 03/ 2009: " من نماذج التدخل الأجنبي الغير مباشر في القضايا الداخلية للبلدان ما يصدر في شكل تقارير سنوية تشرف عليه وزارة الخارجية الأمريكية حول الحريات الدينية في العالم ويصدر ملحقا للتقرير السنوي لحقوق الإنسان حول العالم وقد بدأ العمل على هذا التقرير منذ عام 1999. وخطورة التقرير تكمن في كونه لا يعتبر مصدرا للمعلومات التي تهم الحريات الدينية... بل على أساسه تتحدد طبيعة تعامل القوى الغربية العالمية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، بل الأكثر من ذلك قد تتسبب هذه التقارير في اتخاذ عقوبات إقتصادية، وهي سلاح سياسي للإستعمال ضد كل من يعارض سياسات الولايات المتحدة الأمريكية. " وقد صرح أسقف الجزائر، بحسب ما نقلته جريدة التجديد المغربية بتاريخ 2009/6/24 بأن القائمين على التنصير في الجزائر من المدفوعة أجورهم من قبل جهات أجنبية؛ ما يعني أنهم يعملون من أجل صناعة أقلية توكل إليها مهمة إرباك الدولة سياسيا.

ومع دخول إسرائيل بقوة في تحديد علاقات البلاد العربية والإسلامية مع العالم ومع الغرب فإن المصلحة الإسرائيلية باتت تشكل أبرز عامل تتشكل من أجله هذه المجموعات المسيحية والعرقية في الكثير من البلدان العربية التي ما زالت لحد الآن ترفض الإعتراف أو التطبيع مع إسرائيل ولو في الظاهر. وفي هذا الشأن يبرز الدور الذي لعبته إسرائيل في دعم وتمويل حركات التمرد المسيحية في الجنوب السوداني والتي وصلت إلى تقسيم هذا البلد وخنق ما بقي منه بإغراقه في مشاكل الفقر وسوء المعيشة.

ولأن سياسة هذه الدول تقوم على المصالح ولا علاقة لها بالمبادئ فإنه لا بأس من التضحية بهذه الأقليات إذا حققت مصالحها أنظمة إستبدادية تعمل ضد مصلحة شعوبها وقضاياها الوطنية والقومية لمصلحة القوى الكبرى في العالم، أو بدا من تلك المجموعات بعض الولاء للوطن أو لقضايا الأمة والأمثلة كثيرة في العالم اليوم؛ فالولايات المتحدة الأمريكية تمد شيعة العراق بالمال والسلاح والدعم الكامل لأنها خدمت مصالح أمريكا ووفرت لها طريق الدخول إلى قلب المنطقة العربية والإسلامية وتعادي شيعة لبنان الذين ترى فيهم تهديدا لإسرائيل وهو أمر ينسحب على بقية المجموعات والأقليات في العالم.

الأهداف الثقافية:

يتحدد مفهوم الثقافة من مجموعة من العناصر تشكل هوية المجتمع، ومجمل تلك العناصر يتمثل في التاريخ والدين واللغة، وتمثل تلك العناصر القلاع الحقيقية لأي شعب من الشعوب تتحصن فيها ضد محاولات السلخ والمسخ الثقافي ومن ثمة التهديد الوجودي برمته. ويعتبر الدين أبرزها، وهو في الحالة الإسلامية يشكل هوية إذ يظهر الإصطلاح الذي يحدد مناطق الصراع في العالم اليوم أن الإسلام يشكل هوية

الأمة فيقال الإسلام والغرب؛ أي تتحدد هوية الغرب بموقعه الجغرافي بينما تتحدد هوية العالم الإسلامي بالدين.

ويعد الدين الإسلامي بالنسبة للجزائريين هوية منذ أن دخل فيه الناس أفواجا عقب الفتوحات، وبقي منذ ذلك الزمان قلعة وحصنا احتمى به الجزائريون، وقد كانت لهم مع الاستعمار الفرنسي تجربة طويلة في حربه على الإسلام وفي استبسالهم في الدفاع عنه، ولم تتوقف مشاريع الإستهداف، بل تكثفت واتخذت طابع صناعة أقليات تصنع منها بؤر لتغيير المشهد الثقافي والعمل على تغيير التكوين الفكري والثقافي للشعب الجزائري. ولا شك أن الدعوات الدينية، بما لها من تأثير روحي، تسهم كثيرا في عملية التغيير الثقافي والفكري، ولذلك تولت الجهات التنصيرية مهمة تشكيل العقل العربي والجزائري على الصورة التي تتلاءم والمصالح الثقافية والإستراتيجية للدول الكبرى، وقد ركزت تلك الجهات التنصيرية على المناطق التي تعرف بالتنوع العرقي واللغوي وهي التي تعاني فئات منها ضعفا في استقرار الهوية وهو ما شكل لها حاضنا مناسبا لمحاولات صناعة أقلية في تلك المناطق.

والحقيقة أن صناعة أقلية تحمل ثقافة موازية لثقافة باقي السكان وفكرا يختلف عن فكرهم هو ما يمهد الطريق للقوى الكبرى في العالم بالتدخل من أجل ما تسميه حماية الحقوق الثقافية والدينية، بل وتعزيزها وذلك بالدعوة إلى تشريعات وقوانين تكفل مزيدا من الحريات، الشيئ الذي يعطي الإنطباع، بالنسبة لتلك المجموعات، بأن تلك الدول تشكل الحامي والراعي لحقوقها ووجودها ومن ثمة صناعة نوعا من الشعور بالإحترام لتلك الدول والحكومات الذي ينتج عنه ضرورة الولاء المطلق لها. وبهذا تعمل تلك القوى على تحويل جزء كبير من جسم الشعب إلى عدو لبلده

سياسيا وثقافيا وتهدد الهوية الوطنية والقومية له[1] ولعل ما شهدته وتشهده الجزائر من حالات اضطراب وتوتر في مناطق معينة من البلاد منذ ما يسمى بالربيع الأمازيغي في العام 1980 وما قبله إلى اليوم يعكس الوجه الثقافي التفكيكي الذي عملت المؤسسة الإستعمارية الرسمية وظهيرها المتمثل في الجهات التنصيرية على صناعته وتكريسه أثناء الاحتلال ولم يتوقف حتى بعد الإستقلال وقد قويت شوكته بعد حالة الإنفتاح على ما يسمى بالحريات الدينية التي يشهدها العالم ومنه الجزائر.[2]

الأهداف الإجتماعية:

تسعى القوى الكبرى في العالم من خلال الأقليات الحديثة التنصير إلى تحقيق جملة من الأهداف؛ حيث تلقى الأقلية المصطنعة كل الدعم المادي والمعنوي من أجل استنزاف دولها وحكوماتها وإضعافها عن طريق إحداث توتر دائم في البلد والتفنن في خلق الفتن والإضطرابات والدعوات المتكررة إلى طلب الحماية من الجهات الأجنبية، وهو ما من شأنه أن يلهي تلك الدول والحكومات عن الإهتمام بالشؤون اليومية الحقيقية للمواطنين ويشغلها عن الإلتفات إلى قضايا التنمية وتطوير الخدمات. وهي الورقة التي تستعمل، في الغالب، من أجل توجيه انتقادات للحكومات والدول المعنية

1 نشير هنا إلى كيفية تعامل الغرب رسميين ونخبا مع ما يسمى أسلمة أوروبا وخشيتهم من أن تغير تلك الظاهرة الوجه الثقافي لأوروبا ومن ثم ما يعتقدون أنه تهديد للهوية الأوروبية ولذلك سنت القوانين جرت الإستفتاءات من أجل منع بناء الصوامع والحجاب والنقاب وغير ذلك وفي نفس الوقت كيف تعاملت النخب والجهات الرسمية مع الموضوع في البلاد العربية.

2 أنظر، محمد الميلي، مجلة المستقبل العربي، سلسلة مقالات بعنوان: الجزائر والمسألة الثقافية: التناقضات الثقافية والجذور، ع45 و36 و42، سنة 1982.

والتي مفادها أنها حكومات عاجزة عن الإهتمام بقضايا ومشاكل المواطنين، ويزداد سقف الإنتقادات في الصعود إذا كان البلد غنيا ويحتوي باطنه على ثروات. ويؤدي ذلك التراجع في الخدمات اليومية للمواطن، وعدم التمكن من إحداث أي تطوير على المستوى المعيشي بالناس إلى إحداث حالة من الفقر والتهميش الإجتماعي ويكرس الطبقية الإجتماعية ويؤلب الناس على حكوماتها ما يعمل على تفشي حالات الإحتقان والشعور بالظلم أكثر، ومن نافلة القول أن انتشار الفقر والإحتقان السياسي مع ما يجلبه من آفات اجتماعية كلها قنابل موقوتة تهدد الأمن الإجتماعي وتجعل البلد تعيش حالة من اللااستقرار والفوضى.

ومن جهة ثانية فإن اكتساب مجموعة سكانية في مجتمع مسلم دينا جديدا ولغة جديدة وثقافة جديدة يولد بالضرورة شعورا بالإرتباط بمن يحملون تلك العناصر أكثر مما يشعره بالإرتباط بأهله ومجتمعه ووطنه الذين يرى فيهم مجتمعا مغايرا ومختلفا عنه ما يولد شرخا داخل النسيج الإجتماعي إبتداءا من الأسرة الواحدة إلى الحي الواحد إلى المجتمع الواحد وصولا إلى الأمة الواحدة وهو ما يهدد الأمن الإجتماعي ويقضي على الوفاق والإنسجام داخله. ولا أدل على ذلك من حالات تنصير وقعت وتقع في بلادنا تنتج عنها براءة الوالدين والأقربين والأهل ممن غيّر دينه وتنصّر ومثل هذه الحالات قد تكون فرائس سهلة لتكون ظهيرا لأصحاب المصالح والقوى الكبرى في العالم.

الخاتمة:

إن الأمن والسلام هدف تسعى إليه الأفراد والمجتمعات والدول، وتخصص لتوفيره الخبرات البشرية وترصد له الأموال والأسلحة والأغذية، وقبل ذلك هو نعمة إلهية منّ الله بها على المؤمنين إذ قال: "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من

جوع وآمنهم من خوف. "وفي وجود تلك المجموعات المصطنعة تغيب الكثير من حالات الأمن؛ حيث يفتقد الأمن السياسي بسحب القرار السيادي وتكريس التبعية، ويتآكل الأمن الإجتماعي بالفقر والتهميش والإنقسام، ويهدد الأمن الثقافي بتفكيك الهوية وتمزيقها؛ فإذا فقد الفرد هويته وفقد المجتمع تماسكه وفقدت الدولة قرارها فقد إنهارت منظومة الدولة ما يعني أن التنصير هو صناعة إستعمارية بامتياز وأنه مشروع تفكيكي وأنه وسيلة للإستقواء على الوطن بقوى خارجية وأن دوره وظيفي وأبعد أن دعوة دينية وأن خطره كبير ما يستدعي البحث عن منهج لدراسة الظاهرة يشترك فيه المفكرون والباحثون من كل التخصصات كعلم الإجتماع والنفس والسياسة ولا يبقى محل اهتمام الباحثين والدارسين في الفكر الإسلامي فقط.

قائمة المراجع

أولا الكتب:

1/ بقطاش خديجة، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830- 1871، مطبعة دحلب، الجزائر، (دط)، (دت).

2/ بن نبي مالك، شاهد القرن: الطفل والطالب، ط2، دمشق، دار الفكر، .1984

3/ دبوز محمد علي، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، الجزائر، المطبعة العربية 1971، ج1.

4 / سعيدوني ناصر الدين، الجزائر منطلقات وآفاق، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000.

5/ هنداوي حسام، القانون الدولي العام وحماية حقوق الأقليات، القاهرة، دار النهضة العربية، 1977.

6/ وهبان أحمد، الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر، ط2، الإسكندرية، دار الجامعة، 1999.

ثانيا المجلات والجرائد:

1/ المستقبل العربي، ع 42 -45 -83 سنة 1982

2/ جريدة التجديد المغربية، تاريخ الصدور: 2009/3/31 2009 /6/24

3/ سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر، دار الكتب، دت.

ثالثا الكتب الأجنبية:

1 / francesco copotorti ،etude des droits des personnes appartenant aux minorites ethnique religieuses et linguistiques ،deuxieme conference mondiale de la lutte contre le racisme et la dicrimination raciale ،departement de l,information de l,organisation des nations unies ،documents de base ،n06 .

2 / le generale daumas ،la grande kabylie ،etude historique ، paris ،1843 .

3 / le pere duga ،la kabylie et le peuple kabyle ،paris ،1877 .

4 / warnier ،l,algerie devant l,empereur ،paris ،1865 .

